# آفاق المعرفة




# المجمعيّ (الشيخ عبد القادر المغربي) ١٨٦٨-١٩٥٦م داعية الإصلاح والتجدد

د.عبد الكريم الأشتر *

-١-

*رأيته مرة واحده، وكان قارب أن يتعدى الثمانين، يمشي مثقلاً بعبء السنين. على رأسه عمامة بيضاء، وإلى جانبه فتاة سافرة، عرفت، من بعد، أنها ابنته. كان المنظر آنذاك -قبل نصف قرن- لا يخلو من الغرابة. وكان أوشك أن يدخل سوق الحميدية، فرأيت الناس، على الجانبين، يتطلعون فيه: قرنان من الزمان تجمعهما صورة واحدة! كنت يومها (١٩٤٨) طالباً في الجامعة. وكنت في صحبة زميل يعرفه، فأشار إليه يقول: «الشيخ المغربي»!*

---

* أديب وناقد وباحث في الأدب العربي (سورية).

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

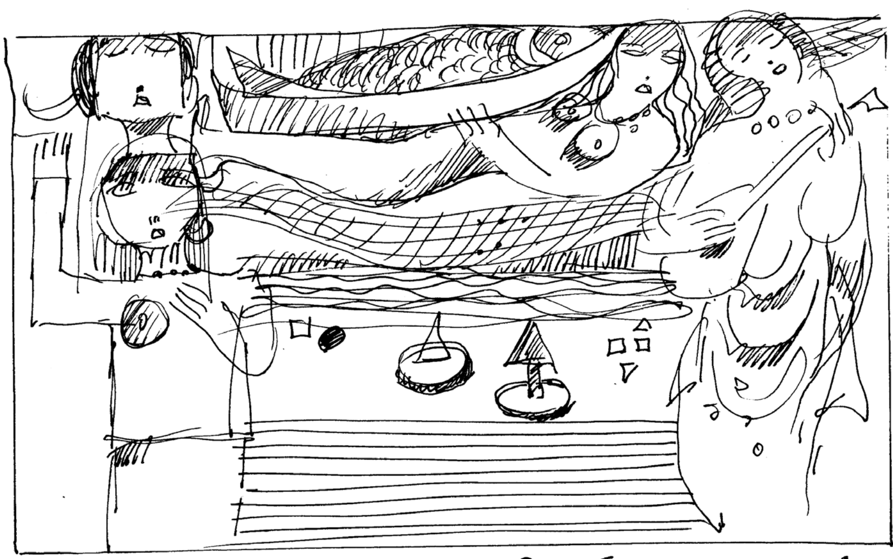
إن مــن الشخصيات التــي طالما تمنيت لو كنــت لقيتها، زعيم مدرســة الإصلاح في النصف الثاني من القرن التاسع عشر: جمال الدين الأفغاني (ت١٨٩٧م)، فالشيخ المغربي واحــد من تلامذتــه، وله عنه كتــاب صغير صدر في سلسلة «اقــرأ»[١] التي كانت تصدر في القاهرة.

كنت أتمنى أن يحدثنــي عن هذا الرجل الغريب الــذي حمل عصاه وجــال في العالم الإسلامــي: «يكرز بالإصــلاح»، فيهز الدول القائمــة فيه، ويحــرك الثــورات، ويعصف بالرجــال: من أي المذاهب هو؟ وإلى أي وطن ينتســب؟ وكيف زلّت قدمه يوماً فدخل أقبية الماسونيــة؟[٢] ومــا المعاني التــي تكمن وراء لغتــه الغريبة أحياناً؟ وكيف أتيح له أن يطّلع علــى هذا الخليط من الثقافــات؟ وبأي لغة كان يقرؤهــا؟ وكيف كان ينظــر إلى القضية المثــارة من أيامه إلى اليوم، وسمّوها: «تحرير المرأة».

على أنه لم يخلف كتباً كثيرة، فكتبه لا تزيد على ثلاثة أو أربعــة، هي أقرب إلى الرسائل منهــا إلى الكتب[٣] وله الخاطرات التي دوّنها عنــه أحد تلامذتــه «محمــد المخزومي»[٤]. ولكنه خلّــف مدرسة فكرية طلعت من جبّتها جميــع حــركات الإصلاح التــي نعرفها: في الدين والاجتماع والسياسة واللغة.

فالشيــخ المغربي واحد مــن تلامذة هذه المدرسة البارزين. ولعله أكثرهم التزاماً بالفكر الإصلاحــي نظراً وممارسة. كان يرى، مثلاً، أن الحجاب يعنــي ألا تتبرج المرأة، وألا تخلو برجــل أجنبي، وألا تسافر إلا في صحبة أحد محارمها. فأما الحجــاب الشائع -في رأيه- فمــا يتفق مع ما للمرأة مــن حرية التصرف التي كفلها لها الإسلام. فأباح لابنته أن تخرج سافرة. ومشى، بعمامته وجبته، إلى جانبها في السوق. وناصــر قاسم أمين[٥]، صاحب كتاب «تحرير المرأة»[٦] وتلميذ المدرسة الإصلاحية نفسها، وامتدحــه ورد على منتقديه. ووصل في رده إلى أن يقــول: «إن مسلمي اليوم، على الحال التي هم عليها، ليسوا بمسلمين». فثار به الناس، واتهمــوه بالكفر والمروق. وأمضى حياته كلها في ظل هذه الحملة القاسية.

كان يدعو إلى فتح باب الاجتهاد بشروطه الشرعيــة: الكفــاءة والإخلاص. ويــرى أنه أصــل من أصول التقاليد العلمية في الإسلام. واجتهــد لنفسه فكتب يحبــذ التمثيل على المسارح. ثم خاض البحر فترجم عن الفرنسية التــي كان يقرؤهــا روايــة دوماســ الابــن الشهــيرة (غادة الكاميليا) La Dame aux



Camelias. ثم أضاف إليها، هو نفسه، بعض الأدوار الغنائية، وعرضها على الشيخ سلامة حجـازي[7] فمثلتها فرقتـه سنة١٩٠٨، على مسارح القاهرة، باسم «النجم الآفل».

وكان ينتقـد لغـة الكتابة أيامـه ويدعو إلى تبسيطهـا، فجعـل من كتابتـه مثلاً في تبسيـط الجملة واختيار المفردات المطروقة. وزاد فدعـا إلى التوسـع في تعريب المفردات الأعجمية، وقـال: «إن التردد في قبولها أخلَّ بنهضتنـا اللغويـة وأخّرها أكـثر من نصف قرن».

ثم لم يكتف بذلك فصنع، هو نفسه أيضاً، معجماً جمع فيـه هذه الألفاظ مقسمة على الموضوعـات، لكنه لم يكملـه. وكان من أوائل الداعين إلى تكوين معجم حديث يفي بحاجات الحيـاة المعاصرة، ويُقصَر على مفردات اللغة المستعملة، وتضـاف إليها المفردات الجديدة الدخيلـة والمولّدة و المنحوتـة والمشتقة، مما تستدعيـه حاجات الناس إذا كتبوا أو تكلموا أو قـرؤوا ما يكتبه أهل العصـر. ثم رأى أن يكتـب، منذ مطلع القـرن العشرين، كتاباً في «الاشتقـاق و التعريب» يعين على تنمية اللغة وتوسعتها، فكتبه، وأصدره سنة١٩٠٨م.

ورأى في النـاس عزوفـاً عـن الـتراث، فاستعان بنزوعه إلى الفن القصصي، وعرض مـن التراث نصوصاً جميلـة كتبها على نحو

قصصي جذاب، نجدها في كتابه «محمد والمرأة، ومحاضرات أخرى».

-٢-

أحب أن أقول: إنما اخترت الكلام على المغربي لأنه من الرجال القليلين الذين «عاشوا أفكارهم»، حسب التعبير الدارج اليوم، وطبقوها في أنفسهم، في مرحلة درج كثير من الناس فيها على أن يغلّفوا أنفسهم بالأفكار. واخترته لأنه حارب في أكثر من جبهة واحدة: في السياسة والدين واللغة والاجتماع.

رأى، مثلاً، أن يقف إلى جانب المدافعين عن الخلافة، ولكنه لم يسكت عن نقدها. فحين بنى السلطان عبد الحميد ضريحاً لوالد أبي الهدى الصيادي[٨] (الرجل الذي لعب دوراً في حياة الخلافة العثمانية، آخر أيامها، واحتجن لنفسه نقابة الأشراف) نظم المغربي شعراً نقد فيه مسلك الخليفة، ونعى عليه إسرافه في بناء الضريح، وتقريبه الحمقى والجهال من مقام الخلافة. وارتضى لنفسه أن يدخل السجن بعدها.

وكان من أوائل الدعاة إلى إنشاء المدارس العصرية بدل الكتاتيب التي كان التعليم فيها مقصوراً على قراءة القرآن الكريم. ونهى عن زيارة القبور. ودعا إلى تحرير اللغة من أساليب الخطابة وبهولوانياتها اللفظية. وإلى تبسيط التعبير وتقريبه من أفهام الناس.

وكان يذكر في الداعين إلى إنشاء الجامعة في مصر، وتطوير أساليب التعليم في الأزهر، وإلى تمكين التسامح الديني في نفوس الناس. ويهتم بأقطار المغرب العربي، وبالأقطار الإسلامية البعيدة. مثل جاوة والهند.

ثم لما أسست الجامعة السورية «جامعة دمشق» شارك في تصحيح كتبها، في كليتي الطب والحقوق، فقوّم لغتها، وأدخل فيها مصطلحات جديدة.

-٣-

فمن هو هذا الشيخ المغربي؟

هو من أصل تونسي. هاجرت أسرته من تونس لأسباب سياسية، وتولى جدّه منصب الإفتاء في اللاذقية وطرابلس الشام. ثم سكنت أسرته هذه المدينة، وشُهرت بالفقه والقضاء، ونسبت إلى المغرب. وكان أبوه على صلة بالأمير عبد القادر الجزائري في الشام.

كانت لأبيه خزانة عامرة بالكتب المخطوطة والمطبوعة، فانكب الطفل عليها، وأتم حفظ القرآن الكريم قبل أن يجاوز العاشرة. ثم دخل المدرسة الوطنية في طرابلس، وهي أول مدرسة عصرية أنشئت في ديار الشام. وفيها عرف الشيخ رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده. وتأثر الفتيان بالنزعة الإصلاحية، وقرأا جريدة «العروة الوثقى»[٩] التي كان

السيد جمال الديــن الأفغاني والشيخ محمد عبــده يصدرانها في باريســ. وبدأ يتمرسان بالكتابــة في الصحف، فتحـــررت لغتهما من الأساليب القديمة و قيود الصنعة اللفظية.

ثــم لقي، وهـــو في ميعة الصبـــا، السيد جمال الديـــن في الآستانـــة، في نهاية القرن التاسع عشر، وصحبه سنة كاملة كانت نقطة الفصـــل الحاسمة في اتجاهـــه إلى الإصلاح وتحريـــر فكره من الأوهـــام. ومن يقرأ كتابه الذي كتبه عن السيد جمال الدين «في سلسلة اقرأ» يدرك مبلغ ما خلف هذا الداعية الذي مـــلأ الدنيا وشغـــل الناس، في عقـــل الشاب المغربي.

ثــم إنه اتجـــه إلى الصحافـــة، فحرّر في الصحـــف إلى جانب محمد كـــرد علي، فزاد ذلـــك من تمرســـه بالإنشاء الحـــي وأساليب النقد الاجتماعي. ثم أنشأ صحيفة «البرهان» في طرابلـــس، وشـــارك في إنشـــاء «الكليـــة الصلاحيـــة» في القدس، ودرّس فيها، فأعانه ذلـــك كله على بلوغ مرتبـــة النضج في الفكر والتعبـــير. ثم أصبح المجمعُ العلمي في دمشق «مجمع اللغة العربية اليـــوم» مجلس نشاطه، فانتقل إلى دمشق، وسكنها إلى نهاية العمر.

لم يكن يغـــادر الكتاب. وقـــد تمضي أيام كثيرة، وهـــو منكب عليه، لا يغادر بيته. ولكن الكتـــاب لم يقطعه، في مراحل عمره كلها، عن صلته بالحياة، فظل وفياً للإصلاح والتجدد، وحرباً على الجمود في كل الميادين.

☆ ☆ ☆

ما أجله! وما أصدقه! ما أروع جرأته! وما أقربـــه منا؟ ما أعظم ما كان يمكنه أن يخلف في حياتنـــا من أثر لو أنصفنـــاه! ولكنا، على المعهود فينا، نسيناه!

## الهوامش

١- العدد ٦٨ (ضمن لائحة السير والتراجم).
٢- راجـع (خاطـرات جمـال الديـن الأفغـاني الحسينـي) -دار الفكـر الحديـث بلبنـان (الطبعة الثانية ١٩٦٥) ص١٧ وما بعدها.
٣- مـن رسائلـه: نفي مذهـب الدُّهريـين (كتبها وهـو في الهنـد). اختصـرت في آخـر كتـاب (الخاطـرات) الـذي أشرنـا إليـه في الحاشية السابقة. وانظر مجموعـة (العروة الوثقى): مطبعة التوفيق ببيروت١٣٢٨هـ.
٤- في مقدمتهـا كلمـة لمالـك بـن نبـي (المفكـر الجزائـري) حيّا فيها دور الأفغاني في «نهضة الأمة».
٥- قاسم بن محمد أمين المصري (ت ١٩٠٨). درس الحقـوق في فرنسة، وعمل في القضاء بمصر، وتـوفي فيهـا. كانت لـه صلـة بالشيخ محمد عبـده، وقيـل: إن هذا نظـر في كتابه (تحرير

المرأة) قبل أن ينشر. (انتقد فيه تعدد الزوجات والطلاق والحجاب). انظر كتاباً لماهر حسن فهمي. (قاسم أمين) من سلسلة أعلام العرب -القاهرة، دون تاريخ. ولكاتب هذه السطور فصل بعنوان (قضية المرأة من منظورين: بين العقاد وقاسم أمين)، من كتاب (فواصل صغيرة في قضايا الفكر والثقافة العربية) ص٩٣ وما بعدها دار طلاس- دمشق٢٠٠٢.

٦- صدر في القاهرة كتابه الآخر (المرأة الجديدة).

٧- (ت١٩١٧). يعد من مؤسسي الحركة التمثيلية الغنائية. من كبار المغنيين. حسن الصوت. كانت له فرقة يطوف بها.

٨- أبو الهدى الصيادي (١٨٤٩-١٩٠٩). ولد في خان شيخون (من أعمال حلب)، وغلب على السلطان عبد الحميد. اختلف في شأنه، وخاصمه الإصلاحيون (جمال الدين الأفغاني وغيره). رُمي بالمخرفة، ومات منفياً بعد ثورة١٩٠٨م. جمعت أخباره في كتاب باسمه (دار البشائر بدمشق ٢٠٠٣) وجمع شعره أيضاً.

٩- لم تستوف، في صدورها، أكثر من ثمانية عشر عدداً في سبعة أشهر: صدر الأول في ١٣٠١/٥/١٥هـ ١٨٨٤/٣/١٣م، وصدر الأخير في ١٣٠١/١٢/٢٦هـ ١٨٨٤/١٠/١٦م. انظر طبعتها القديمة -بيروت، مطبعة التوفيق لصاحبها نسيب صبرا ١٣٢٨هـ.

☆ ☆ ☆